الافتتاحيّة

آفاق الدراسات المستقبليّة عند العرب والمسلمين

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على نبي الهدى والرحمة محمّد بن عبد الله ﷺ وعلى أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وأصحابه المنتجبين، وجميع الأنبياء والمرسلين، وبعد...

لقد أكثر علماء الاجتماع وغيرهم من دراسة الظواهر الكثيرة في المجتمع الإنساني منذ القدم، ويستند هؤلاء بالغالب إلى دراسات تمزج بين قراءة الماضي، والتعمّق في فهم الحاضر، وقراءة المستقبل واستشراف ما يمكن أن يكون عليه الحال في القادم من السنين، وهذا ما يعبّر عنه بـ «وضع الظاهرة في سياقها الزمني للوقوف عند حقيقتها»، أي كيف كانت الظاهرة في الماضي، وكيف أصبحت في الحاضر، وكيف ستكون في المستقبل؛ فالظاهرة ليست سجينة ماضيها، وليست رهينة حاضرها فحسب، وإنّما رهينة مستقبلها أيضًا؛ وذلك لأنّ الظاهرة تتميّز بالتغيّر الزماني والمكاني وما يحيط بها من تطوّر وتكنولوجيا وغيرها. ومن هنا تبرز أهمية الدراسات المستقبلية والاستشرافية بكل ما تحمله من عناصر بنيوية تنعكس آثارها على واقع المجتمع والإنسان في الآتي من الزمان، ويكون لها الدور الكبير في تطوّر المجتمعات ورقيّها وحضارتها.

(1) رئيس تحرير مجلة الحياة الطيّبة التخصّصية.

أولًا: ما المقصود بالاستشراف؟

لقد كثرت الدراسات اللغوية والاصطلاحية الهادفة إلى تحديد مفاهيمي جامع لقضية الاستشراف والدراسات المستقبلية، وقد تمّت الإشارة إلى أكثرها في سياق مقالات هذا العدد من مجلة الحياة الطيبة، لذا نكتفي بذكر هذا التعريف المركّز للاستشراف، دون الدخول في بحث المناهج المستخدمة، أو علمية الدراسات المستقبلية أو فنّيتها، أو كليهما معًا، فقد تباينت الآراء بين من يراها «علمًا»، ومن يراها «فنًا»، ومن يراها توليفًا بين العلم والفن[1].

فـ «الاستشراف» (Prospectivity) عبارة عن عملية علمية منظّمة لمجموعة من التنبؤات المشروطة، التي تتضمّن المعالم الرئيسة لمجتمع معيّن أو مجموعة من المجتمعات في حقبة زمنية لا تتجاوز عشرين سنة. والاستشراف عملية بعيدة عن أمور التكهّن والاعتبارات الشخصية، تخضع للأساليب العلمية، التي تحلل الماضي وتفسّر الحاضر، وتدرس العلاقة السببية بين العوامل والمتغيرات المؤثّرة؛ ما يعني أنّ الاستشراف يستند إلى قاعدة صلبة من البيانات العلمية والمعلومات الدقيقة كميًّا ونوعيًّا بشأن الظاهرة الآنية حاضرًا وأصولها التاريخية ماضيًا، باعتبارها جزءًا مهمًّا في التنبّؤ بالمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في المستقبل. كما تضبط قائمة بالأولويات والأهداف الاجتماعية للمجتمع مستقبلًا، والتي من خلالها يستشرف أحداث المستقبل، مستهدفًا مدى احتمال وقوعها»[2].

وأما استشراف المستقبل فهو «اجتهاد علمي منظّم يرمي إلى صوغ

---

(1) بحسب توجّهات استطلاع الرأي العام التي تبنتها الجمعية الأمريكية لمستقبل العالم حول الاسم الذي ينبغي أن يطلق على هذا النوع من الدراسات، والمنشور في مجلتها الشهرية المستقبلي Futurist في عام1977، أن أغلب الآراء؛ أي بنسبة 72% تتجه صوب تفضيل مصطلح الدراسات المستقبلية ومرادفاته، بينما صوت بنسبة 14% فقط لصالح مصطلح «علم المستقبل». ما يدل أنّها حقل بيني وليس علم قائم بذاته أو فنّ قائم بذاته.

(2) جندلي، رابح عبد الناصر: مجلة العلوم السياسية والقانون، العدد الأوّل، 2017م.

مجموعة من التنبؤات المشروطة، والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات، وعبر فترة مقبلة تمتدّ قليلًا إلى أبعد من عشرين عامًا، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصّة حول الماضي والحاضر، ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع. بهذا الشكل، فإنّ استشراف المستقبل لا يستبعد أيضًا إمكانية الاستكشاف الكمي والكيفي للتغييرات الأساس الواجب حدوثها في مجتمع ما، حتى يتشكل مستقبله على نحو معيّن منشود»[1].

ثانيًا: الدراسات المستقبليّة عند العرب والمسلمين:

يظهر بوضوح للمتتبّع في تاريخ العلوم وتطوّرها عند العرب والمسلمين أن قضية السعي إلى معرفة المستقبل واستشراف ما يمكن أن يحدث في المجتمع الإنساني على مستوى الأفراد والجماعات كانت من القضايا ذات الأهمية والأثر الكبير في حياة الناس، حتى إن العرب قبل الإسلام كانوا يلجأون إلى وسائل -لم يوافق عليها الإسلام لاحقًا- اتخذت أشكالًا غير علمية، تمثّلت في قراءة الطالع والتنجيم والعرافة والشعوذة والسحر وما شابه ذلك، وحتى استغلال الظواهر الطبيعية لأهداف مادية أو سلطوية وما شابه، وهي تمثّل حقولًا معرفية موجودة في ذات التراث وفي حضارات ومجتمعات أخرى غير عربية.

ولكن هذا لا يعني عدم وجود اهتمام لدى العرب والمسلمين بما يمكن أن نطلق عليه التفكير المستقبلي، إنّما نستطيع أنْ نؤكّد بأن ذلك الاهتمام البسيط والمبعثر، والذي أخذ أشكالًا مختلفة ومعقّدة، كان له دور بارز في الرقي بحركة الإبداع والتفكير المستقبلي والاستشراف في ذلك الوقت لدى المسلمين بوجه عام والعرب على وجه الخصوص.

(1) إبراهيم، سعد الدين؛ آخرون: صور المستقبل العربي، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 1982م، ص23.

وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[(1)]؛ أي لا تدخل عليه الشبه، والعلم بالزمان لا ينحصر بالزمن الحاضر، بل يتعدّاه إلى المستقبل، إذ كيف يمكن معرفة الزمان بكلّ ما يحمل من قضايا شائكة ومعطيات متنوّعة بقراءة الحاضر فقط، وكيف يمكن دفع اللوابس والشبهات التي تغزو الفكر والعقيدة وأسس المجتمع وقيمه وأعرافه من دون استشراف المستقبل وقراءة ما يحاك ويخطّط حوله وله. وقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «إِنَّ الأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا»[(2)]؛ «ذلك أنّ المقدمات تدلّ على النتائج، والأسباب تدلّ على المسبّبات، وحتى لو لم يكن الشيئان علّة ومعلولاً، بل كان بينهما أدنى تناسب، يمكن أن يستدلّ بحال أحدهما على حال الآخر. فإذا كان الحال كذلك، واشتبهت على العاقل الفطن أمور لم يعلم إلى ماذا تؤول، فإنّه يستدلّ على عواقبها بأوائلها، وعلى خواتمها بفواتحها، كالرعية ذات السلطان الركيك الضعيف السياسة، إذا ابتدأت أمور مملكته تضطرب، واستبهم على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل، فإنّه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها، ويعلم أنّه سيفضي أمر ذلك الملك إلى انتشار وانحلال في مستقبل الوقت، لأنّ الحركات الأولى منذرة بذلك، وواعدة بوقوعه»[(3)].

وهذه القاعدة التي وردت في العديد من النصوص عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام هي بمنزلة المنهج السنني الذي لا يغيب عن أيّ زمان ومكان في هذا العالم في الماضي والحاضر، فلا يختلف اثنان في أنّ فهم الحاضر ودراسة المستقبل بالاستفادة من تجارب الماضين في التاريخ له

---

(1) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط5، طهران، دار الكتب الإسلامية؛ مطبعة حيدري، 1363هـ.ش، ج1، كتاب العقل والجهل، ح29، ص27.

(2) العلوي، محمد بن الحسين بن موسى (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، قم المقدّسة، دار احياء الكتب العربية؛ عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1387هـ.ق/ 1967م، ج18، حكمة74، ص223.

(3) م.ن.

الدور الحاسم في بناء المجتمع المتماسك والمتطوّر وتشييد عناصر قوّته واستمراره، ومحافظته على قيمه وأصوله العقدية والدينية. وإنّ دعوات القرآن الكريم في العديد من الآيات الكريمة إلى التأمّل في الآفاق والأنفس والسماوات والأرض، وإعداد القوّة، وعمارة الأرض وغيرها، تأتي في سياق أهمية الدراسات المستقبلية والحث على دراسة الحاضر وفهم ما يجب أن يكون المستقبل عليه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[3].

وتأسيسًا على ذلك، ولأنّ المستقبل يشكّل السياق الزمني الوحيد أمام الإرادة الإنسانية للتدخّل فيه، مع الأخذ بالاعتبار كافّة الاحتمالات بشأن الظاهرة محلّ الدراسة والتحليل، من خلال التوفير والتوظيف لمناهج الدراسات المستقبلية وأساليبها وتقنياتها، ومن أجل ترجمة تلك الأهمية إلى واقع ملموس؛ فقد لجأت دولٌ عدّة إلى إنشاء كليات ومراكز دراسات وبحوث لمأسسة الدراسات المستقبلية، بغية الانتقال الآمن والتدريجي من الحاضر إلى المستقبل، والاستفادة المثلى من الموارد البشرية وغيرها، وتوفير الحلول الممكنة للمشاكل والتعقيدات التي قد تبرز على السطح في الآجال القريبة والمتوسّطة والبعيدة، وبخاصّة أنّ الدراسات المستقبلية باتت ضرورة حتمية لأيّ تقدّم أو تطوّر في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية وغيرها. وليس بعيدًا عن هذا دعوة الشهيد السيد محمد باقر الصدر في كتابه «البنك اللاربوي في الإسلام» ضمن دراسة

(1) سورة يونس، الآية 101.
(2) سورة الأنعام، الآية 11.
(3) سورة الأنفال، الآية 60.

اقتصادية مالية شاملة، حيث دعا إلى ضرورة تأسيس شعبة باسم شعبة البحوث الاقتصادية، وظيفتها التنبؤ بفُرَص العمل المربح في المستقبل والتنبّؤ بمستقبل الصناعة والتجارة وما شاكل[1].

ثالثًا: الوعود الإلهيّة بالتحقيق الحضاري والدراسات المستقبليّة:

لقد حدّد الحقّ تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية في هذا الكون بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]. وهذا يعني أنّ الله قد فوّض للإنسان عمارة الأرض، والعمارة نقيض الخراب، وهي تعني تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للانتفاع بها وبخيراتها في الحاضر والمستقبل.

وعمارة الأرض تتحقّق بالعلم الذي هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التي هي تطبيق للعلم؛ ومن أجل ذلك فهي تدخل تحت مفهوم الفريضة. ومن هنا فإن الحضارة في المفهوم الإسلامي تعني تحقيق المشيئة الإلهية في عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا، وبذلك يحقّق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله في الأرض. وهذا ما لا يتحقّق إلا بالاستعانة بالدراسات المستقبلية، فالزمن يتضمّن ثالوثًا ظرفيًّا، يتمثل في الماضي والحاضر والمستقبل. أما الماضي فهو كل ما يتصل بما سبق، وأما الحاضر فهو تعبير عن الوضع القائم في حالة حركية أو ديناميكية، وأما المستقبل فيعبر عما هو قادم بعد الحاضر. ويكمن الفرق بين هذا الثالوث الظرفي في أنّ الماضي يعبر عن حقيقة قائمة بذاتها لا يمكن تغييرها تمامًا، في حين أنّ الحاضر يمثّل عملية صيرورة ديناميكية قيد التشكّل لم تكتمل معالمها بعد. بينما يشكّل المستقبل السياق الزمني الوحيد أمام الإرادة الإنسانية للتدخّل فيه وتوجيهه نحو تحقيق الأهداف المنشودة في عمارة الأرض وتحقيق خلافة الإنسان في الأرض.

---

(1) انظر: الصدر، محمد باقر: البنك اللاربوي في الإسلام، ص51.

(2) سورة هود، الآية 61.

وفي هذا الصدد لا بدّ من الإشارة إلى حقيقة مهمّة تتمثّل في وعود إلهية ثلاثة للمؤمنين ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي وعود يؤدّي تحقّقها إلى الوصول بالأمّة الإسلامية إلى الدرجة العليا في التقدّم الحضاري. وقد وردت هذه الوعود الثلاثة في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[1].

وغير خاف أنّ هذه الوعود لا تتحقّق للمسلمين إلّا باستيفاء شرطين أساسين؛ هما: الإيمان والعمل الصالح. فالإيمان هو الأساس، والعمل الصالح هو البناء، وكلاهما: الإيمان والعمل الصالح يرتبط بالآخر ارتباطًا لا ينفصم، ويشكلان وجهين لعملة واحدة.

ومفهوم العمل الصالح في الإسلام هو كلّ عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة -دينيًّا كان هذا العمل أم دنيويًّا- ما دام قد قصد به المرء وجه الله تعالى ونفع الناس ودفع الأذى عنهم. فالعمل الصالح مفهوم عام شامل لخيرَي الدنيا والآخرة، والإسلام -كما هو معروف- دين للحياة بكلّ أبعادها، لا فرق في ذلك بين الأمر الديني البحت والأمر الدنيوي الصرف، وهذا يعني أن العمل الصالح مفهوم يقصد منه تحقّق القيم الدينية والأخلاقية بالمعنى الشامل، الذي يمكن أن نعبر عنه بالقيم الدافعة إلى تقدّم الإنسان ورقيه وتقدّم المجتمع وازدهاره، وهذا معناه تحقيق القيم المؤدّية إلى بناء الحضارة. وإذا تمّ ذلك تحقّقت بالتالي الوعود الإلهية الثلاثة المشار إليها، وهي:

1. التمكين في الأرض والسيادة عليها. وهو المعنى المقصود بالاستخلاف في الأرض. مع ملاحظة أنّ الاستخلاف هنا نقيض الاستعلاء؛ لأنّ الاستخلاف يتضمّن الإرادة الإلهية في كون الإنسان خليفة في الأرض، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ على المستخلف أن يتخلّق بأخلاق من استخلفه، ويلتزم بتوجيهاته وأوامره.

(1) سورة النور، الآية 55.

2. أمّا الوعد الثاني، فإنّه التمكين للدّين، والتمكين للدّين لا يأتي عفوًا ولكنّه يأتي نتيجة طبيعية للتمكين في الأرض الذي يتحقّق عن طريق الاستخلاف المشار إليه. وهذا ما أشارت إليه آية أخرى في سورة الحجّ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾(1).
3. والاستخلاف في الأرض والتمكين للدّين يؤدّيان في النهاية إلى نشر الأمن والسلام والاستقرار، وهذا هو الوعد الثالث؛ قال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(2) . وهذا يعني أن المسلمين من شأنهم أن يكونوا عنصر أمن واستقرار في هذا العالم، وأن قوتّهم ستصبّ في النهاية في مصلحة البشر جميعًا.

ولهذ فإنّ دينًا بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنّما يجعلها في قائمة أولوياته، كيف لا وهي فريضة إسلامية وواجب ديني لا يجوز للمسلمين أن يتخلّوا عنه، وهذا ما يفرض على كل المسلمين ترك خلافاتهم الداخلية جانبًا وفتح جميع أبواب العلم والبحث العلمي، ولاسيّما الدراسات المستقبلية؛ إذ إن هذا الذي يحفظ وجودهم أعـزاء، ويبني مستقبل مجتمعاتهم على أسس متينة وقوية، ويمكّنهم من إدارة أنفسهم ومواردهم ومقدّراتهم، ويحقّق لحاضرهم ولمستقبلهم الاستخلاف الكامل، والتمكين، والأمن والاستقرار.

توصيات:

انطلاقًا من أهمية الدراسات المستقبلية والاستشرافية وانعكاسها الإيجابي في المجمعات والدول، كونها تستهدف تحديد كل التطورات المستقبلية في حياة البشر في العالم أجمع وتحليلها وتقويمها بطريقة عقلانية موضوعية... وتفسح مجالًا للخلاقية والإبداع الإنساني...(3). وعلى

(1) سورة الحجّ، الآية 41.
(2) سورة النور، الآية 55.
(3) وليد، عبد الحي: «الدراسات المستقبلية: النشأة والتطوّر والأهمية»، على الموقع الآتي:
http://alexandriamedia.blogspot.com/201405//blog-post_27.html

الرغم من التزايد النسبي للاهتمام نظريًّا بالدراسات المستقبلية في الوقت الراهن وممارساتيًّا من لدن الباحثين الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين وغيرهم، فإنّ منهجيتها المتعدّدة وأدواتها البحثية المتنوّعة ما تزال غامضة المعالم، ومحلّ جدال واسع بين شتّى مفكّري التيارات والمدارس الفكرية. وحتى لا تبقى ثقافة الدراسات المستقبلية تراوح مكانها في بلداننا، لا بدّ من:

- رفع القصور الموجود على مستوى التنظير للدراسات المستقبلية بسبب غياب بناء نظري ممنهج جاهز يرقى إلى مصاف النظرية.
- العمل الجاد على التأطير الأكاديمي للدراسات المستقبلية بإدخالها إلى المناهج الجامعية وتأسيس تخصّصات جامعية حولها.
- تأسيس مراكز الدراسات والمؤسّسات المتخصّصة المنتجة في هذا الحقل المعرفي، وعدم الاكتفاء بالترجمات واجترار ما أنتجه الآخرون.
- تخصيص ميزانيات مالية كبيرة تنسجم مع الأهمية والدور الكبير لهذه الدراسات في تطور المجتمعات وبناء حضارتها.
- تحرير العقول من سياسات التعصّب والانغلاق على الذات الدينية أو القومية.
- إعطاء الأولوية للدراسات الاستشرافية والمستقبلية في الاجتماع والاقتصاد والتربية والإدارة والسياسة وغيرها، وجعل نتائجها مدخلات رئيسة في هذه المجالات.

وختامًا:

تسهم مجلة الحياة الطيبة في هذا العدد من خلال مجموعة من الدراسات في الإجابة عن السؤال الآتي: كيف يمكن التأصيل للدراسات المستقبلية تاريخيًّا، وضبط منظومتها المفهومية، وتوظيف مناهجها وتقنياتها وأساليبها البحثية في مجالات استعمالاتها الميدانية المتنوّعة؟